فرق لمكافحة الغناء المريض

للأستاذ سيد قطب

إذا صح ذلك الصدى الذى استرجعته لكلمتى فى العدد الأسبق من « الرسالة » عن « الذوق الفنى ونهر الجنون » من إخوان لى فى الفكرة لم أعرفهم من قبل ، كان عدد الذين « لم يشربوا من النهر » أكثر كثيراً مما قدرت ، وكان عجيباً أن يضيعوا هكذا فى غمار الشاربين المخمورين !

وإنهم ليفضون إلىّ بأسباب غريبة لصمتهم عن الجهر بآرائهم ، أسباب لم تصادفنى مرة واحدة ، ولو صادفتنى لعرفت كيف أثور عليها وكيف أحطم شباكها ، ولكان مجرد اصطدامى بها حافزاً للثورة المحطمة لا للسكون الكظيم

إنهم يشكون نفوذ بعض المشتغلين والمشتغلات بالغناء المريض فى مصر ، هذا النفوذ الذى يسوّق المقالات فى إدارات الصحف فلا تنشر إذا كان فيها تصحيح لطريقتهم فى الموسيقى والغناء ، ويحبس الأغانى والألحان فى محطة الإذاعة فلا تذاع ، إذا كان فيها كشف للضعف وتأثير فى الشهرة ، وفرصة للموازنة بين المشهورين وغير المشهورين ... هذا النفوذ الذى يشتريه بعض المشهورين والمشهورات بالمال والشفاعات تارة ، وبجاه المعجبين بهم الشاربين من النهر معهم من أصحاب السلطان والمرشحين للسلطان تارة !

ولست أدرى مدى هذه الشكايات من الصحة ، ولكن تواترها على ألسنة لا مصلحة لها فى الادعاء ، وبسط حوادث معينة فى صحف « محترمة ! » معينة . كل هذا جعلنى أوجس شراً ، خشية أن تتبر هذه الكلمة التى يخطها قلمى فلا تبصر النور ، وأن تصدها الشفاعات والدسائس عن الظهور !

وعلى الرغم من ثقتى بالرسالة التى أوسعت صدرها غير مرة لنقد عظماء الفكر فى الشرق والغرب ، فأنا أرجو أن تعذرنى فى هذا التوجس ، فإن الحوادث التى سمعت عنها تشير إلى خطة منظمة يتوسل إليها بعض المشهورين والمشهورات بكل وسيلة مهما كلفتهم من جهد وتضحية ، لكتم النقد وإذاعة الثناء ، وقبر كل نبوغ يزغ ، ويهدد شهرتهم بين الغوغاء

وحين يصح هذا يكون جناية على الفن والذوق والخلق ، وعلى كل إحساس رفيع فى الأمة وكل شعور كريم ، جناية تجب مكافحتها ، وأنى لأهب هذا القلم لهذا الكفاح وأعلم أن الحواجز والسدود التى يشكو منها الشاكون لن تحول دون هذا القلم حين يريد

إننا لن نشتم هؤلاء الناس الذين يسحقون روح الشعب فى كل أغنية ، ويهدون عزيمته فى كل لحن ؛ ولن نوجه إليهم فاحش اللفظ ولا بجر القول ، ولا شأن لنا بأشخاصهم ، ولكننا نتتقد طريقتهم ، ونندد بآثارها المقيتة فى النفوس . وما دام الأمر كذلك فسنجد لهذا القلم مجالاً غير محدود ، على الرغم من كل الحواجز والسدود ، ولن يكون هؤلاء المشتغلون والمشتغلات بالغناء الزائف المريض بأعز من عظماء الفكر الذين تناولهم النقد فى أبعد الحدود

والأمم تنشئ الفرق لمكافحة المرض حين ينتشر الوباء ، ولمكافحة اللهب حتى يصب الحم على الأبرياء ، ولمكافحة المخدرات حين تهدد سلامة البلاد . . . فمن واجب مصر أن تنشئ الفرق لمكافحة الغناء المريض الذى يسحق كبرياءها ، ويحطم رجولتها وأنوثتها ، ويثير أحط غرائزها ، ويخدر أعصابها كالمخدرات

وما أمزح أو أنهكم ! فأنا أقترح جاداً إنشاء هذه الفرق ، من كل ساخط على هذا الترنيم الوجيع ، مشمئز من هذا التكسر الخليع . وهذه الفرق تستطيع الشىء الكثير : تستطيع بث الدعوة ، وضرب المثل ، ومقاومة كل نفوذ تجارى يبذل فى إدارات الصحف ومحطة الإذاعة ... وتستطيع تتبع هذه الأنغام بالتجريح والتهجين فى كل مجتمع وناد ، مع تصحيح الأفهام وتقويم الإحساس

ولست أبالغ حين أنهى إلى وزارة الشئون الاجتماعية وإلى وزارة الدفاع أن هذه الأغانى تعوق جهودها فى انتشال المجتمع المصرى وتقويمه ، وفى بث روح الحماسة وتقويتها ، فشبان البلد وشوابها مشغولون ومشغولات بالمأتم الدائم فى كل مذياع ، الحافل بالنائحين والنائحات ، وبالدموع الرخيصة

المتصنعة ، وبالدغدغات الخليعة المتكسرة فى الألحان والأغنيات

وحين نكافح « الطابور الخامس » يجب أن نحسب حساب « الغناء المريض » ويجب أن نسكت هذه الدغدغة وهذا التميع وتلك المخدرات المتسربة إلى الضمائر الهامسة فى الأخلاد

وما كان لأى « طابور خامس » أن يؤثر ما تؤثر هذه الأغانى — حتى الأناشيد الوطنية والحماسية التى خرجت أشبه بالمناحة مرة ، وبالنشيج المترنح مرة — إذا استثنينا « نشيد الجامعة » لأم كلثوم

لم تبق عاطفة إنسانية نبيلة لم يشوهها هذا الغناء ، ولم يبق شعور وجدانى كريم لم يفسد طبيعته

فالحب مثار الحيوية فى النفوس ، ومبعث القوة فى الوجود . هذا الحب الذى تدخره الحياة لأبنائها ، لتبيحه لهم فى أفضل ساعاتهم وأملئها بالفيض الروحانى ، والتفتح العقلى ، والنضوج الجسمى ، وتعبر به عن أقصى غبطتها بهم ورضاها عنهم ، وتدل به على صلاحيتهم لها وأدائهم لحقوقها . هذا الحب الذى هو « جواز المرور » من حمله من الأحياء أباحت له الحياة خدرها وأعز مكنوناتها (كما يقول العقاد) . هذا الحب الذى يفجر فى الإنسان كل منابع السمو والعطف والمرح والاستعلاء كما يفجر فى الحيوان — فى صورة الغريزة — كل منابع النضج والقوة والازدهار

هذا الحب كله عاد فى ذلك الغناء رجع الصدى المزيل للغريزة المضموقة ، وصوت الأسى الذليل للحيوانية المريضة ، ودمعة الضعف الكسير للرغبة العاجزة

والألم أنفس الأحاسيس الإنسانية . الألم الطهور الكريم صقيل الطبيعة البشرية ، ومنضج المشاعر الفجة ؛ وبوتقة الشهوات الخبيثة . . .

هذا الألم عاد فى ذلك الغناء تصنعاً زرياً ، وتكسراً شائناً ، وعيماً « مقرفاً » ونعومة خبيثة

والفنون على الإجمال ، هى رمز الأمل الطليق من قيود الواقع المحدود ، المتعالى على مطالب الضرورة القاسرة ، وهى مهرب النفس الإنسانية الطموح حين يعجز الواقع عن تلبيتها فتجد فى الفنون دنيا من المستقبل ، وعالماً من المثل الأعلى ، وفسحة من الكمال الموموق

ولن تكون الفنون تعبيراً عن جوعات الأجسام ، ولا شهوات اللحم والدم إلا فى أحط صورها وأولى درجاتها ، ولكن ألواناً من القوة الحيوانية العارمة ، والنشاط الغريزى الفاره ، والجوع البهيمى النتزى قد يعجب النفس لما فيه من معنى الحيوية المتوثبة والقوى المتحفزة

فوسيقى الجازبند تعبير عن الحيوانية المائجة ولكنها قد تجد لها شفيعاً فى الدنو من دائرة الفنون بما فيها من قوة الهياج ، وضجة الزياط ، وثورة الدم فى العروق

ولكن أى شفيع للحن أو أغنية هى تعبير عن الحيوان المضموف السقيم ، يتميع بالغريزة العاجزة الكليلة ، ويتخلع بالرغبة العجفاء المزيلة ، ويدغدغ غرائز السامعين المخدرين ؟

ما سمعت أغنية واحدة أو لحناً واحداً ، ولا سيما الأغنيات الأخيرة إلا أحسست بالتقزز للرجل المتراخى النائم على نفسه ، المتخاذل فى حركاته ، المهوم للنعاس فى تنهاته ، وللمرأة المتخامة فى نبراتها ، المدغدغة فى تأوهاتها ، ولشواب البلد وشبانها يتهالكون من الرخاوة ، ويتحاملون من الهزال ، ويرفعون عقيرتهم بالنواح : « يالوعتى يا شقايا يا ضنى حالى — طول عمرى عايش لوحدى — مايهونشى »

وكل هــذا هين لولا فجيعتى فى شاعر أعزه وتربطنى به روابط ودية وثيقة ، وصلات أدبية طيبة . وقف مرة أمام المذياع يقدم قطعة من تأليفه لحنت هذا التلحين ، وأديت هذا الأداء ؛ فقال : إنها فى صورتها هذه الممسوخة تعبر عما أحس به وهو ينظم مقطوعته ، وأنه يعتز بهذا التعبير كل الاعتزاز

شعرت بالفجيعة مع ثقتى بأن عوامل غير عامل الإعجاب الفنى بكل تأكيد هى التى أوحت إليه بمـا يقول . شعرت بالفجيعة لأنه شاعر وصاحب قلم ، وكل ذوى الأقلام يتعين أن يكون مكانهم فى صفوف المكافحين عن ذوق الأمة الفنى وعن سلامة فطرتها التى تنهكها هذه الألحان

ولقـد انتهيت إلى مقاييس لا تخطئ فى تقدير صحة الفطرة الفنية وسلامة الشعور الإنسانى ، وهى فى يدى كمقياس الحرارة فى يد الطبيب . فأيما إنسان دل مقياس الحرارة فى فمه على رقم غير الرقم الصحى ، فهـو مريض مهما نطقت ملامحه بالصحة